نهضة أوربا

في القرن الثاني عشر

أساسها اللاهوتي ثم الفكري

تدرجاً وعلى مر العصور ، وضعت أوربا أساس حياة ثقافية خاصة بها . ولقد زودت الزراعة شعوب الغرب بفضلة من الرفاهية ، تحولت نزعة الى اجتناء ثمرات بعيدة عن مجرد الحاجات الموضعية . فنمت المدن ذوات الأسواق واتسعت لتبادل السلع الأهلية وتوزيع البضائع الكمالية المجلوبة من الشرق . ومع وجود أهل المدن وانتشار الرفاهية والمصالح المادية بدأ التطلع العقلي يحقق وجوده ، وأثبت ذاتيته ، بالنظر في العقائد السائدة ، والولع الروحي نحو الحكمة المفتقدة .

لقد بدأ تسارع الحياة الروحية بتأسيس دير كلوني Cluny العظيم في القرن العاشر ، فأدى الى الاصلاحات التي بدلت الكنيسة من نظام موضعي ، الى نظام بابوي شامل فيه عشرات من المؤسسات التي آنس الناس في ظلها متسعاً لسد حاجات التطلع العقلي والنفسي ، وكانت في العصور المظلمة نظاماً قام على دير هنا ودير هناك ، استغرقها ديريون انصرفوا الى المخطوطات القديمة يستعمقون في طياتها ، كلما سمحت لهم ظروف الفراغ من قطع أشجار الغابات أو زراعة الأرض

ضاعف ذلك من عدد أولئك الذين تملكت عليهم الشهوة العقلية ، كما هيأت البيئة لتدريج الميول الجديدة في الفكر . فنشأت ثقافة شعبية تبدت في أدب الغناء والقصص حتى غزت القصور الاقطاعية وبيوت الأثرياء من التجار في المدن . أضف الى هذا أن مجازفة التوسع التي نعرفها باسم الحروب الصليبية ، كانت مبدأ لاحتكاك الكثيرين من أهل الغرب بالحضارات الشرقية الراقية ، لحضارة العرب والبربر ، كما كان غزو ثوار الصليبية الرابعة لمدينة القسطنطينية (١٢٠٣—١٢٠٤) أول تماس فعلي لرجالها بحضارة إغريقية ، وبالحرى بحضارة الروم .

ولكن مهما كان لهذه الحوادث من قيمة وأهمية ، فانه خليق بنا أن نعترف انه ليس من احتكاك أو نظام ، كان السبب في بلوغ الشعوب الغربية حد الرشد ، بل كان السبب في ذلك نماء الجمية الأوربية في العصور الوسطى ، نماء مطرداً وان كان بطيئاً ، وبخاصة في حياتها الاقتصادية .

منذ بداءة القرن الثاني عشر وفي أثناء القرن الثالث عشر ، استطاع رجال أوربا الغربية

أن يقيموا حضارة فيها نظام وفيها ألفة وتجانس . واذا سقنا القول في محض العقائد والمعاملات ، فانما نشير بذلك عمة الى الحياة الثقافية في القرون الوسطى . وانه لمما يثير العجب ان ذلك العصر قد شهد أول خطوة خطتها الشعوب التي تحكم الآن كرة الارض ، نحو تنشئة ما يقال «يجتوز» إنه «حضارة» أو «ثقافة». ولن تقع على فترة ، حتى ولا على لحظة واحدة منذ نهضة القرن الثاني عشر حتى الآن ، يمكن أن يشار اليها فيقال إن قوى التطور في الغرب قد وقفت فلم تتابع سيرها ، أو أن النماء العقلي والاقتصادي قد تبدل فصار حياة سكون أو جمود في حياة تلك الشعوب، أشبه بذلك الذي شوهد في حياة الصين والهند أو الشرق بوجه عام ، أحقاباً برمتها في التاريخ .

لقد عملت الطاقة البشرية ، كما عمل الذكاء الانساني منذ ذلك العصر ، فعدل وبدل ، وازاد وأربى من وراثات تلك الشعوب ، ثم تسارع ذلك فبلغ في هذا العصر أعظم مبالغة. ولا شك في أن هنالك آراء عامة وأخرى رسمية من الآراء التي امتازت بها العصور الوسطى كما كان هناك وجهات من النظر ، ظلت جامدة نسبيًّا ، ومضت ثابتة قروناً عديدة . هذه الآراء والمثاليات ، هي بذاتها وفي الحق ، أساس النصرانية الحديثة ومتمها . ولقد ظل كثير منها رسمياً في معتقدات العديد الغالب من الناس حتى الجيل الفارط، ولقد قُبِل بعضها، فاتخذ على انه من الأشياء الجوهرية في عصرنا هذا .

فاذا وقف الرجل الغربي اليوم موقف من ينظر الى العقل الاوربي في العصور الوسطى نظرة انه غريب عنه دخيل عليه ، فان ما وقع خلال الزمان منذ تلك العصور الى اليوم من الانقلابات والتغيرات وما تخللها من تعديلات وقعت بين مختلف نواحي الفكر ، لا يمكن أن تفهم حق الفهم إلا في ضوء الماضي وما فرط من عمر تلك الحضارة . والغالب أن أقوم طريق لتفهم حقيقة الآراء والعقائد ، أن يفقه الباحث انها ارتكاسات — reactions — برزت استجابة لعوامل خاصة .

أما واننا سوف نبدأ البحث بالقرن الثالث عشر ، فواجب علينا أن نصور كيف تبدت الحياة الانسانية لاهل ذلك العصر ، وماذا كان شعورهم تلقاءها . سوف نبين عما ظل ثابتاً مطرداً من مفصلات تلك الحياة وماتقوض منها وباد ، كما اننا سوف نبين عن تلك المتكشفات المثالية التي بدلت من حياة دنيا العصور الوسطى وخلقت منها دنيانا التي نعيش فيها .

قارن « أناتول فرانس » في كتابه «حديقة أبيقور» مبيناً الفرق بين دنيا العصور الوسطى ، ودنيانا الحديثة ، فقال :

لا شك يتعذر شيء من الانفعال اذا أردنا أن نصور عقل الانسان في العصر القديم ، حيث اعتقد اعتقاداً لاريب فيه الملك أن الارض في مركز النظام الدنيوي ، وان كل الكواكب تدور من حولها .

لقد شعر تحت قدميه بأرواح الذين أصابتهم اللعنة يتقلبون في القبر ألماً ، وربما سمع حين يرفع رأسه أنين ... رأسه ، وشم بملء أنفه ، أدخنة الكبريت تنبعث من جهنم ، ملأنة من خلال صدع من صدوعها . فاذا رفع رأسه الى أعلا تطلع الى الافلاك الاثنى عشر ، الى فلك العناصر وفيه الهواء والنار ، ثم أفلاك القمر وعطارد والزهرة التي زارها دانتي وبياتريس يوم جمعة الحزينة سنة ١٣٠٠ ، ثم أفلاك الشمس والمريخ والمشتري وزحل ، ثم القبة الزرقاء التي تعلق فيها النجوم كأنها المصابيح . ومن خلف هذه ، يأتي بعد ذلك : السماء التاسعة أو الفلك التاسع مستقر القديسين ، ثم المحرك الاول أو الفلك البلوري (١) ، ثم في النهاية المطهر (٢) مقام المصطفين ، واليه تتطلع نفسه بعد الموت ، ان يتقبلها ملكان يلبسان البياض ، كما لو كانت نفسه في طهر الطفل الوليد ، غسلت بالتعميد ، وتعطرت بزيت السر المقدس ، (٣) في ذلك العصر لم يكن لله من أولاد غير الانسان ، أما بنية خلقه فقد نظم بطريقة أقرب الى الطفولة ، وفي صورة شعرية ، فكأنها كاتدرائية (٤) عظيمة ، فاذا تصورنا الكون على ذلك ، ألفيناه بسيطاً ، حتى لقد تمثله في كونه وتعاقب صوره وحركاته ، كأنه جملة ساعات مصورة تحركها آلات .

اما الآن فقد قوضنا الافلاك الاثنى عشر ، وكذلك الكواكب التي كان يولد الانسان في ظلها سعيداً أو شقياً ، مشتري الحياة أو زحليها . والقبة الصلبة التي هي السماء ، فقد هدمت وتطايرت شظاياها في ... ، وبذلك اخترقت العيون والافكار أغوار الكون اللانهائية ، فلا نجد اليوم ذلك المطهر ، مستقر الصالحين والملائكة ، قائماً من خلف السيارات ، بل مئات الملايين من الشموس ، تجرجر من الاقمار والتوابع ما لا تراه العين المجردة . وفي وسط تلك العوالم اللانهائية نجم خافت ، كأنه ذرة من غاز ، وأرضنا كأنها ذرة من طين .

العوالم تموت لانها تولد ، انها تولد وتموت الى غير نهاية . والخلق ، بحكم انه ناقص وبعيد عن الكمال ، لا بد من أن يتوره التغير بغير انقطاع . ان الشموس تنطفيء ، فلا ندري ان كانت بنات النور هذه ، تبقى دوماً على هذه الصورة ، حية أخرى في صورة سيارات ، فتكون حياتها الجديدة حية مفيدة مفعمة بالخير ، كما لا نقدر أن نقول ما اذا كانت السيارات قد تنحل فتصير شموساً تارة أخرى . كل ما نعرف ان السكون غير كائن ، لا في السماء ولا في الارض ، وان سنة العمل والجهد ، تحكم العوالم وتقدر مصايرها الى ما لا نهاية .

هنالك شموس انطفأت امام أعيننا ، وأخرى تومض بضعف كأنها لهب شمعة كادت تذهب . أما السماوات ، التي خيل للناس انها ثابتة لا تتغير ، فانها لا تعرف شيئاً من معنى الابدية ، الا أبدية انها مدونة في مجرى الاشياء . The Garden of Epicurus, by Anatole France.

غير أن أهم ما يدور بأذهاننا عن ذلك الكون المركب في هيئة صندوق ، والذي تخيله عقل الانسان المتخلف في العصور الوسطى ، ماهو الغاية الاساسية التي من أجلها وجد ، غاية أن يكون مسرحاً لتمثيل تلك المأساة التي هيأها الله لسلالة آدم . ومهما يكن من أمر معرفة الانسان في العصور الوسطى وضيقها ، فان الشك لم يتسرب الى نفسه إزاء أمر واحد : هو أن الارض والسماوات وكل الاشياء التي فيهن ، قد خلقت له حتى يحيي حياته ، ويصطنع فيها مصيره الأخير .

أما رواية ذلك الخلق ، والمناظر المثيرة التي وقعت فيه ، والصور التي عبرت بجلاء عما قام في ذهن الانسان أنه سوف يقع ، فكانت أشياء معروفة لديه مروية في أسطورة أو قصة ، فلأت أفكاره وأفعمتها ، كما أفعمت صورها الكاتدرائيات العظمى ، نحتاً في الحجر أو تصويراً على الجدران .

Cathedral (٤) Sacraments (٣) Empeyrean (٢) Primum Mobile or Crystalline (١)

على أنك إذا أردت أن تعرف كيف فقه الرجل الوسط الفكر حقيقة التاريخ ، وكيف أمل أن يكون مصير الانسان ، فان الفيلسوف « منتيانا » يروي ... قالب صريف ، أخذاً من الصورة التي أثبتها الأسقف « بوسويه » في كتابه ... في التاريخ العام ... الذي ألفه في أواخر القرن السابع عشر ، واليك ما قال :

كان في البدء ، على ما تروي القصة اللاهوتية ، ملك سماوي ... ذوو أجنحة من موسيقيين وأتوار[2] . وجد ذلك الملك من أزل ... كان مصمماً خلال كل أزليته وعند ما تأتي الساعة المناسبة ، أن يخلق كائنات زمانية[3] ... أن تكون صورة ناقصة منه بنسب متفاوتة . هذه الكائنات ، التي كان الانسان أعظمها ... سنتها الأولى سنة ٤٠٠٤ ق. م. وانها سوف تعيش زمناً غير محدود . ولكن ... أن الاتساق الزماني سوف لا ينفصم حتى تجيء سنة ٤٠٠٤ بعد الميلاد .

إن هذه المأساة قد بدأت ، وسوف تختتم ، بصورتين ...

فأول شيء ، وطوعاً لكلمة الله ، أخذت الشمس والقمر ... الأرض مع ما يتبعها من نبات وحيوان ، يركزها المقسوم لها ، وطفرت الطبيعة الى ... ما فيها من السنن والقوانين ، وخلق الله أول انسان من طين ، وخلق أول امرأة ... عندما كان في نوم عميق ووضع الاثنين في حديقة حيث كان في مستطاعهما أن ... بعد الظهيرة ، وحيث كانا يتنزهان في رطوبة المساء . وجعلهما يتبوآن منها حيث يشاءان وأن يأكلا من ثمارها التي غرسها فيها ، وأمرهما أن لا يقربا شجرة معينة . ولكنهما بتغرير شيطان ، انتهكا ذلك الأمر ، فأخرجا من هذا الفردوس تتبعهما لعنة ... عيش بعرق جبينه ، والمرأة تحمل وتلد وتتألم . والأولاد الذين يلدونهما يرثون ... أن يستقروا في رحم الأم تلك الطبائع المسنة التي اكتسبها أبواهم ... ولدوا ليحطوا ... والفوضى ، حينما يكونون وأينما يكونون ، في أنفسهم ، وفيما حولهم ...

ولكن الله ، حذر أن يندثر ذلك العمل الذي عملت يداه ... أن يستنقذ بعض بني آدم ويردهم الى الحياة الطبيعية . على أن هذا الاستنقاذ كان ... في النهاية مع أحفاد حواء ، الذين قدر لهم أن تطأ أقدامهم رأس الأفعى[4] ... الاستنقاذ كان سوف يقع بحوادث جزئية سبقت في علم الله . فكان لا بد من أن يستنقذ نوح من الطوفان ، ولوط من سدوم ، واسحق من التضحية ، وموسى من مصر ، والأسرى اليهود من بابل ، وكذلك كل الذين يؤمنون بفساد الكفر والوثنية .

(1) Discourse on Universal History.

(٢) الاتوار : الرسل ، واحدها تور : رسول (٣) محدثة لا أزلية ولا أبدية

(٤) التي تمثلت في صورة الشيطان وأغرت حواء وآدم على الأكل من الشجرة المحرمة .

هنالك قبيلة واحدة أُخرجت من زمرة الانسانية منذ البداءة تكرس حياتها على كلمة الله مشيدة بذكره مرددة بحكمه ، محيية لوصاياه ، مذكرة بوعوده ، في حين أن بقية الانسانية، قد نبذت، فسيطرت عليها نقائصها الطبيعية ورذائلها النفسية فأخذت تنحدر شيئاً بعد شيء في غور الجرائم والمنكرات .

ان الطوفان الذي أُرسل ليستأصلهم من هذه الخلائق لم يفد فيهم شيئاً . جدد الطوفان الدنيا وبرزت الأرض بعده من غمر الماء مطهرة، ولكن هذا التجديد قد خلف من ورائه وبصورة أولية ، إثارات من الانتقام الالهي . ففي الزمن الذي حدث فيه الطوفان كانت الدنيا والمخلوقات في خشونة تقاوم عوامل الطبيعة ، ولكن الله قد أمر أن يعم هذا الطوفان الأرض ويغطيها ، ويشتد مكثه عليها ، ففاضت كل المصارات ، فتشبع الهواء بالماء ، فنشأت بذلك رذائل جديدة ، واستحدثت نزعات أخرى من الفساد والفوضى ؛ ولم يقتصر الأمر على هذا ، بل ان صحة الخلق الأولى أصابها ضعف ووهن ؛ فأخذت الحياة الانسانية تتناقص في مداها ، بعد أن كانت حياة الفرد قد تبلغ ألف عام . وكذلك فقدت الأعشاب والجذور خصائصها الأولى وتأثيراتها الفطرية ، فبدل طعام الانسان بطعام أخشن وأصلب ، وأكل لحم الحيوان .

خيم الموت على الحياة ، وشعر الناس بأنهم مأخوذين بالأيدي والأذقان . ولكنهم لم يزدادوا على مر الأيام إلا شقاوة وعناداً ، فكان من الطبيعي أن تمر بهم على الأيام شقاوات جديدة . ولقد قدّر عليهم تقييد طعامهم أن ينحدروا الى الفساد والتكس ؛ ومع امعانهم في هذا وتمكن الغضب في نفوسهم ، زادوا إثماً وتمسكاً بالخطاء .

من ثم كان في الوجود روحان ، أو فئتان ، أو كما قال القديس أوغسطين ، مدينتان ، في هذه الدنيا : مدينة الشيطان . وهي مهما بلغت من الفن أو الحرب أو الثقافة ، فإنها مدينة متكبرة كافرة بعيدة عن التقوى . ان مسراتها ليست أكثر من قناع يحجب حقيقتها ، وجمالها طلاء كاذب . انها ملعونة في عين الرب ، كما هي ملعونة في عين التقي لما فيها من غرور وقساوة ونعاسة منبثة في تضاعيفها ، وجهلها بكل ما ينبغي أن يعرف مما يؤهل بالانسان الى الخلود والحياة الأبدية .

الى جانب هذه المدينة كانت مدينة الله ، التي وعد بها أرواح أولئك الذين قدّر لهم الخلاص . كانت مفقودة في ذلك العهد الذي صورنا به مدينة الشيطان ، أو كانت على الأقل غير مستبانة إلا لكبرائها . هي مدينة مهما بلغ من استخفائها وتواضعها لأهل الأرض ، فإن الموعودين بها وتاريخها وأصولها الأولى ، ثابتة في اللانهاية . من وعد بهذه المدينة البطارقة والأنبياء ، أولئك الذين ظلوا طوال أعمارهم قانتين صاغين الى تلك الإيحاءات التي إن ظهرت

لم أول الأمر ملفوفة بضباب ابتدائية ، فقد انتظروا بصبر وجلد الخلاص الأكبر الذي لا بدّ أن يأتيهم يوماً ما . من أسس هذه المدينة أولئك المجوس الذين تتبعوا تنقل النجم حتى استقر فوق الحظيرة في بيت لحم ، وسمعان الذي ترقع خلاص بني اسرائيل ، ويوحنا المعمدان الذي توقع مثل ذلك وشق طريقه الى الحق قويماً مستقيماً ، وبطرس الذي لم يستشف ألوهية المسيح من قوى لحمه ودمه . وإنما فاض الآب بها عليه من السماء . ذلك بأن الخلاص لم يأت إلاّ بعد أن تهيأ له الزمان ، وانه ليس كما يقول اليهود الشهوانيون ، عبارة عن فعل دنيوي استردت به الأرض شبابها وقوتهما ، بل حملت بتجسّد ابن الله في مريم العذراء ، وموته على الصليب ، وهبوطه الى جهنم ، ثم رفعه الى السماء في اليوم الثالث من موته ، على ما تقول الأناجيل . والى هذه المدينة أيضاً ينتسب أولئك الذين يؤمنون برسالة المسيح وحقيقتها وأثرها ، والذين يلتجئون الى فضله ويستمطرون هدايته ، ويتبعون وصاياه بكراهة هذه الدنيا والزهد فيها .

ليس التاريخ في حقيقته وماهيته إلاّ رواية الصراع الهائل الذي قام بين تينك المدينتين ورمز لها بفضيلتين : إحداهما طبيعية ، والأخرى فوقيطبيعية . أو هما بالايجاز فضيلة الشهادة ، وفضيلة الغيب . أو هما فلسفتان : إحداهما عقلية ، والأخرى وحيية . هما ضربان من الجمال : أحدهما جسداني ، والآخر روحاني . أو جلالتان : إحداهما زمانية ، والأخرى أبدية ، أو نظامان أحدهما الدنيا ، والآخر الكنيسة .

المدينتان مختلفتان كل الاختلاف متنابذتان كل التنابذ ، أجنبيتان في أساسهما ، إحداهما من الأخرى ، برغم ما قد يلوح بينهما من الترابط أو التفاهم بعض الأحيان .

متظلان متنابذتين متجالدتين أزماناً بعد أزمان ، حتى يأتي يوم الحصاد . وما يوم الحصاد ذاك إلاّ كمثل اليوم الذي تتنق فيه الحنطة والشيلم على اقتسام الارض ، فينبت كل منهما في مكان يقسم له ، فيتفاعلان بعد طول الصراع ، على اقتسام الارض .

أما أولئك الذين اعتقدوا أن أشياء الدين أعا هي خيالية ولا حقيقة لها . فيرون الله يوم الحساب ، وقد أخذتهم الرجفة ، هابطاً من سحاب السماء ، والملائكة ينفخون في الصور ، وقد خرج الناس من قبورهم كأنهم جراد منتشر ، ليلقى كل منهم جزاء ما عمل ، فالناجون يدخلون في ملكوت الله ونعيمه ، تحف بهم حاشية ترتل الأناشيد حتى يصلوا الى عالم كله ضياء ، في حين يكون الذين أصابتهم اللعنة يتضورون ألماً ، صارخين صاخبين ، منكسين في صور وحوش كريهة المنظر شائهة الوجوه . تلفحهم نار لواحة للبشر، لا تبقي ولا تذر

المدينتان في تناقض وتضاد ، في الحقيقة وفي الجوهر ، ولهذا فلا بدّ من أن تنفصلا في النهاية ، ولا بدّ لكل منهما أن تحمل ثمراتها الطبيعية تامّة من حقيقتها .